المحور الرابع: الأطر النظرية لدراسة النظم المقارنة

في محاولة التأصيل لتطور النظريات و الأطر النظرية في دراسة النظم السياسية، يمكن تحديد أربعة تقسيمات أساسية تمثل في آن معا ترتيبا زمنيا مرحليا وتطورا على مستوى ما يمكن تسميته "النماذج المعرفية" التي ميزت كل مرحلة. هذه التقسيمات تشمل:

إسهامات الرواد الأوائل منذ أرسطو، المرحلة التقليدية،المرحلة السلوكية، ثم المرحلة ما بعد السلوكية .

أولا- روّاد السياسة المقارنة:

• **أرسطو** (القرن الرابع قبل الميلاد): يعد أول من استخدم منهجا مقارنا في دراسة الظاهرة السياسية في وصفه لأنظمة ودساتير المدن اليونانية.

• **مونتيسكيو** (القرن الثامن عشر الميلادي): لم يكتف بتصنيف النظم الأوروبية، بل كان أول من درس نظما من خارج أوروبا (الصين، تركيا، فارس). كان إدراكه لأثر البيئة المحيطة بالنظام على بنائه ووظائفه مصدراً أساسياً للعديد من نظريات السياسة المقارنة في القرن العشرين.

• **ألكس دي توكفيل** (1805-1859)م: يشترك مع مونتيسكيو في التأكيد على دور المحيط. اتبع نفس منهجية أرسطو ومونتيسكيو في تصنيف النظم طبقاً لمعيارين:

أ- وجود الحرية أو عدم وجودها. ب- عدد الذين يشاركون في العملية السياسية.

• **كارل ماركس** (1818-1884)م: قارن ماركس بين الظواهر عبر المجتمعات والثقافات والتاريخ بناء على محكات أربعة للمقارنة؛ هي:

- نمط وعلاقات الملكية كجزء من النظام القانوني للمجتمع.
- تقسيم العمل كجزء من النظام الاقتصادي.
- تحديد موقع الدولة في يد أي طبقة.
- الهدف من الإنتاج .

• **ماكس فيبر** (1864-1920) م: ربط ماكس فيبر بين دراسته المقارنة للأديان بمقارناته للنظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. فقد قارن نظم الري في روما القديمة بالنظم الهندية والجرمانية. وركز على ضرورة المقارنة عبر التاريخ الذي اعتبره (معمل التجربة البشرية). كان اقترابه المقارن بمثابة مرحلة انتقالية (علميا ومعرفيا)، إلى المدرسة السلوكية، ولما بعدها.

ثانيا- الاقترابات التقليدية:

شهدت المرحلة التقليدية ظهور مدرستين فكريتين في علم السياسة ومنه إلى السياسة المقارنة وهي:

- المدرسة المثالية الرشيدة (القانون/المؤسسة).
- المدرسة الوضعية المادية (القوة/الواقع/المادة).

وخلال هذه المرحلة سادت ثلاثة اقترابات في حقل علم السياسة/ السياسة المقارنة: **التحليل السياسي، التحليل القانوني، التحليل المؤسسي.**

1- التحليل السياسي التجريدي/ المثالي: يعد انعكاسا للمدرسة المثالية ، يتمحور حول الدفاع عن الديمقراطية و لتأكيد على حتمية انتشارها اعتمادا على مفاهيم التطور السياسي، وقد اتخذ هذا المقترب أبعادا تجريدية انفصل بها عن الواقع استنادا إلى أسس أخلاقية.

2- التحليل القانوني: ركز على السياسة الفعلية المتجسدة في الدستور و القانون و الوثائق، و انصب التحليل على البناء القانوني الرسمي الذي أصبح النمط السائد من الامبريقية.

3- التحليل المؤسسي: يعتبر الظاهرة السياسية أشمل من الأبعاد القانونية، لذلك تركز اهتمامه على دراسة الحقائق السياسية/ المؤسسات الرسمية؛ (المؤسسات: التشريعية، التنفيذية، القضائية، الأحزاب، البيروقراطيات...). و يقوم هذا المقترب على وصف تفصيلي للمؤسسة ثم إجراء مقارنة بين المؤسسات سواء داخل الدولة أو بين الدول.

ثالثا- التحليل النخبوي/ نظرية النخبة:

إن اتخاذ النخبة كوحدة للتحليل السياسي يعود إلى محاولات غربية حثيثة لمعارضة التحليل الطبقي وتقديم بديل له. وتختلف نظرية النخبة عن المقاربات التقليدية التي تركز على القواعد المؤسسية الحكومية الرسمية، من خلال تركيزها على سلوك الجماعات الصغيرة نسبيا لصانعي القرار السياسي. فتؤكد هي على أهمية النخبة.

اكتسب هذا الاقتراب وضعه كإطار نظري قوي ومتميز لدراسة النظم السياسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد ثلاثة من علماء الاجتماع السياسي الايطاليين وهم، Gaetano Mosca- Vilfredo Pareto- Robert Mitcheles . وتعددت إسهامات التحليل النخبوي بعد ذلك، غير أن أبرزها ما قدمه رايت ميلز، الذي طرح مفهوم نخبة القوة في كتابه "نخبة القوة" عام 1956 .

أ- مفهوم النخبة:

تعبر النخبة عن عملية ترتيب هرمي داخل المجتمع نتيجة اختلاف توزيع القيم، و يرتبط المفهوم بجماعة من الأشخاص يتم الاعتراف بقوة تأثيرها و سيطرتها على شؤون المجتمع الذي تؤلف فيه أقلية يمكن تمييزها عن الطبقة المحكومة وفقا لمعيار القوة و السلطة.

لكن أصحاب التحليل النخبوي لم يتفقوا على مفهوم واحد؛ حيث استخدم **باريتو** مفهوم النخبة الحاكمة، و **موسكا** مفهوم الطبقة السياسية، و **ميشلز** مفهوم الاوليغارشية.

- **باريتو:**

قسم باريتو المجتمع إلى شريحتين أساسيتين طبقا للقيمة الشخصية :

1- الشريحة الدنيا وهي ليست بنخبة والأقل ذكاء .

2- الشريحة العليا وهي النخبة والأعلى ذكاء .

- تنقسم الشريحة العليا إلى نخبة حاكمة ونخبة غير حاكمة. فالحصول على درجة عالية من الذكاء والاندراج في النخبة لا يعني أن الفرد قد أصبح ضمن النخبة الحاكمة، وإنما يعني أنه قد أصبح ضمن النخبة التي قد تكون حاكمة أو غير حاكمة طبقا لمعيارين:

1- التفوق من خلال استخدام القوة للحصول على الإجماع والقبول من قبل المحكومين.

2- توازن القوى الموجود بين جماعات النخبة.

-في بحثه عن عوامل الاستقرار والاستمرار في النظم السياسية أكد **باريتو** أن انفتاح النخبة ووجود قنوات للوصول إليها سبب أساسي للاستقرار، وأن إغلاقها وعدم إمكانية الوصول إليها سبب في عدم الاستمرار والاستقرار.

-بحث **باريتو** أيضا عما إذا كانت النخبة تستطيع امتصاص أعضاء جدد من الجماهير، أم أن الجماهير والفئات المتميزة فيها سوف يستبدلون النخبة بأخرى، وهذا ما أطلق عليه مفهوم دوران النخبة:

- 1دوران داخلي: أي إحلال أفراد محل آخرين.

- 2دوران خارجي: أي استبدال النخبة كلها بأخرى.

- **موسكا:**

أثار موسكا أبرز رواد التحليل النخبوي التقليديين مجموعتين من الأسئلة :

1- المجموعة الأولى تتعلق بطبيعة النخبة السياسية؛ وميز بصدد الأسس التي يستند عليها وضع النخبة في المجتمع بين أربعة أسس وهي:

-القوة العسكرية :النخبة العسكرية.

-المعرفة الدينية والقدرة على التلاعب برموزها :النخبة الدينية.

-الثروة المادية :النخبة الاقتصادية.

-التخصص المعرفي :نخبة الجدارة.

وأشار إلى أن هذه الأسس ليست منفصلة كلية عن بعضها البعض.

2- المجموعة الثانية من التساؤلات تتعلق بمدى بقاء النخبة وتغيرها، وعليه يذهب إلى القول بأنه إذا ما فهمت الاستمرارية والتغير في لنخبة السياسية، يمكن فهم الاستمرارية والتغير في النظام السياسي.

- لم يستخدم موسكا "النخبة" وإنما استخدم مفهوم "الطبقة السياسية"، محاولا الخروج بهذا المفهوم

من التحليل الاقتصادي الماركسي إلى التحليل السياسي النخبوي.

- يرى موسكا أن مفهوم الطبقة السياسية وسيلة لتفسير التاريخ الذي هو تاريخ النخب أو الطبقات السياسية الحاكمة التي توجد في كل المجتمعات.

ب- مسلمات نظرية النخبة:

- تنتظم كل المجتمعات حول قيم معينة منها الثروة، القوة، والهيبة، والمكانة. وتختلف هذه القيم من مجتمع لآخر، ومن فرد لآخر، مما يخلق عملية تصنيف تراتبي في المجتمع.

- كل النظم السياسية تنقسم إلى شريحتين هما: الحكام، والمحكومين. الأولى هي النخبة، وهي الأكثر أهمية في النظام السياسي لأنها تملك القوة السياسية.

- هناك مجموعة محددة من النخب في كل مجتمع وليس نخبة واحدة. يقول **ريمون أرون**: أن وجود نخبة واحدة موحدة يعني نهاية الحرية، ووجود نخب متعددة متنوعة مشتتة يعني نهاية الدولة.

ج- نظرية النخبة والتحليل المقارن:

المقولة الأساسية لهذه النظرية أن كافة المجتمعات، ودون استثناء، تنقسم إلى شريحتين: أولئك الذين يحكمون/ أي النخبة، والمحكومون/أي اللانخبة أو الجماهير.

-ومن هذا المنطلق يرى أنصار النظرية أنه طالما أن كافة النظم السياسية تنقسم إلى حاكمين ومحكومين، فإن هذه النظرية تصبح مناسبة للدراسة المقارنة على أساس أن النخبة السياسية موجودة في كافة النظم بغض النظر عن مستوى التنمية، أو الثقافة، أو الزمن، أو الموقع الجغرافي..

-هذا الوجود للنخبة كمظهر مشترك بين كافة النظم السياسية يمكنه أن يقدم أساسا جيدا للدراسة والتحليل المقارن.

-يمكن إرجاع التباينات بين النظم إلى التباين في هياكل النخب وثقافتها وأدائها، الأمر الذي يجعل من هذه الأخيرة متغيرا مستقلا، ويجعل من النظام السياسي متغيرا تابعا.

-يمكن تطوير إطار تحليلي عام للدراسة المقارنة من خلال إثارة مجموعة من الأسئلة حول طبيعة النخبة ووظائفها مثل: من الذي يحكم في النظام السياسي، من الذي يصنع القرارات، ما هي العناصر الأكثر نشاطا من الناحية السياسية، ما هي خصائصهم العامة وكيف يقومون بوظائفهم، وكيف يجددون أنفسهم ويحافظون على استمراريتهم ...؟.

-بعد معرفة النخبة والوصول إليها، ما هو المطلوب معرفته عن النخبة وكيف يمكن تفسير العملية السياسية من خلال فهم النخبة. هناك محددات أساسية يجب معرفتها عند دراسة النخبة، للاستدلال بها على تفسير المخرجات أو القرارات السياسية وفهمها، وأهم هذه المحددات:

1- الخلفية الاجتماعية(الطبقية، العرقية، الدينية، المهنية ...).

2- السلوك الاجتماعي و السياسي و القيم التي تتبناها.

3- منظورهم لأنفسهم و للعالم من حولهم و اتجاهاتهم نحو الأحداث

4- الخصائص الشخصية لأفراد النخبة.

د- تحديد النخبة في التحليل السياسي المقارن:

هناك أربعة اقترابات أساسية يتم من خلالها تحديد من هم أعضاء النخبة في أي مجتمع:

1- اقتراب الملاحظة التاريخية :

- هو أكثر المسالك مرونة.
- يعتمد على مهارة الباحث والمصادر التي يستطيع الوصول إليها.
- استخدمت هذه الطريقة من قبل باريتو وموسكا.

2- اقتراب المنصب السياسي/ المناصب:

- يقوم على تحديد المناصب الرسمية الهامة والمؤثرة في المجتمع، ومعرفة من يشغلها، واعتبارهم أعضاء النخبة.
- هو أسهل الاقترابات في تحديد النخبة.
- لكن الصعوبة التي تواجهه تكمن في أن شاغلي المناصب الهامة ليس من الضروري أن يكونوا هم أعضاء النخبة، إذ ليس هناك تطابق بين الاثنين.

3- اقتراب صنع القرار :

- يركز على دراسة حالات محددة تعتبر أساسية ومفتاحية في تحديد النخبة الحاكمة في أي مجتمع وذلك من خلال تحليل متصل لعملية صنع القرار ومعرفة من يقوم بها.
- ليس من الضروري أن تكون القنوات الرسمية لاتخاذ القرار هي فعلا التي تصنع القرار، بل قد يصنع في مكان آخر، أو يتخذ بضغط من جماعة ما.

4- اقتراب السمعة :

- من أكثر الوسائل استخداما في تحديد النخبة.
- يعتمد فيه الباحث على ما يقوله المبحوثون في اختيارهم لأعضاء النخبة من القوائم التي يعرضها عليهم.